تاريخ
الأمير شيخ الظاهري

تأليف

شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الحلبي
(المعروف بابن أجا)
٨٢٠ — ٨٨١ هـ

تحقيق

الدكتور عبد القادر أحمد طليمات

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة المدنى
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

مقدمة

المخطوط الذى نقدمه للمهتمين بتاريخ مصر ، يسجل فترة من تاريخ مصر السياسى والحربى ، وهى فترة أواخر حكم السلاطين المماليك فى مصر ، ومن خلال المعلومات التى أوردها المؤلف فى مخطوطه ، يتبين مدى الصراع الذى كان بين سلاطين مصر ، وبين الطامعين بمصر من جيرانها القريبين منها والبعيدين : السلطان العثمانى من ناحية ، وسلطان تبريز من ناحية أخرى ، وكان كلاهما يستعين بولاة مصر فى الشام لتحقيق مطامعهما ، وذلك بإغرائهم على الخروج عن طاعة سلطان مصر ، وكان أكثر هؤلاء الولاة إزعاجا هم ولاة ولاية « الأبلستين » ، الذين كثيراً ما كانوا يخرجون عن طاعة سلاطين مصر ، فيجرد عليهم السلاطين الحملات العسكرية لإخضاعهم ؛ ومن هذه الحملات ، هـذه الحملة التى قادها الأمير يشبك الظاهرى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) لاخضاع شاه سوار والى الأبلستين لخروجه عن الطاعة ؛ وقد رافق المؤلف الحملة ، ودون أحداثها وأخبارها تدوين شاهد عيان .

وكان المؤلف قد عهد إليه بالسفارة لدى سلطان « تبريز » حسن الطويل فى مهمة سياسية ، فترك الحملة وسار إلى تبريز لأداء المهمة ، وحرص المؤلف على وصف الطريق من « حلب » إلى « تبريز » ذهابا وإيابا ، فسجل مشاهداته فى كل مدينة أقام بها أو مر عليها ، فقدم لنا بهذا ، مادة جغرافية لا بأس بها ، تضمنت وصف الأماكن ، وتقاليد وعادات الشعوب التى رآها ، فى طريق ذهابه وعودته .

وفى المخطوط أيضاً ، معلومات عن الرتب العسكرية والادارية المصرية فى عصره ، ومعلومات عن أنواع الملبوسات وأسمائها التى كان يهديها السلطان إلى كبار رجال الدولة من العسكريين والمدنيين .

والمخطوط ـ بعد ذلك ـ مصدر من مصادر تاريخ مصر فى أواخر العصر المملوكى .

والله ولى التوفيق .

مصر الجديدة : ذو القعدة ١٣٩٣ / ديسمبر ١٩٧٣

د / عبد القادر أحمد طليمات

(أ) المؤلف[1]

مؤلف الكتاب هو شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الحلبى ، ويعرف بابن أجا ، وهو لقب أبيه .

* * *

وقد ولد المؤلف فى مدينة حلب فى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ، ونشأ وتعلم بها . فحفظ القرآن ، والقدورى ، والمنار ، وفى النحو حفظ كتاب «الضوء» . وكان يجيد اللغة التركية إجادة تامة ، بحيث كان ينظم بها الشعر ، فقد ترجم كتاب « فتوح الشام » المنسوب للواقدى نظما باللغة التركية فى اثنى عشر ألف بيت .

ومن شيوخه : البدر بن سلامة[2] ، وقد « اشتغل عليه » ، والبرهان الحلبى[3] وقد سمع عليه « الحديث » ، وابن حجر العسقلانى[4] وقد أخذ عنه بمدينة آمد[5] . وكان المؤلف كثير التردد على القاهرة ـ كما يقول

---

(١) اعتمدنا فى ترجمة المؤلف على السخاوى « الضوء اللامع » ١٠/٤٣ ، وما أخذناه عن غيره ، أشرنا إليه فى الحواشى .

(٢) هو بدر الدين محمد بن أبى بكر بن محمد بن سلامة المارديني الحنفى ، توفى سنة ٨٣٧ هـ . (ترجمته فى شذرات الذهب : ٧/٢٢٣) .

(٣) هو الحافظ برهان الدين أبو إسحق بن محمد بن خليل الحلبى المعروف بـ « القوف » توفى سنة ٨٤١ هـ . (ترجمته فى شذرات الذهب : ٧/٢٧٠) .

(٤) هو شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلانى . توفى سنة ٨٥٢ هـ . (ترجمته فى شذرات الذهب: ٧/٢٧٠) .

(٥) آمد : (بكسر الميم) : هى أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكرا ، وهى بلد حصين ركين مبنى بالحجارة السود ، وعلى نشزه نهر دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال ، وفى وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين يتناول ماؤها باليد ، وفيها بساتين ونهر يحيط بها سور (ياقوت : معجم البلدان) .

السخاوى ـ ويبدو أن أول زيارة منه للقاهرة ، كانت فى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) بصحبة خاله[١] ، وفى زيارته هذه اجتمع بابن حجر مرة أخرى ، كما أخذ بها عن ابن الديرى : وفى مكة صحب خطيبها أبا الفضل .

وقد انبرى هو للحديث ، معتمداً على كتاب « الشفاء » .

* * *

وليس لدينا معلومات عن الوظائف التى شغلها المؤلف سوى أنه شغل وظيفة قاضى العسكر ، كما أنه كان إماماً فى الصلاة للأمير أزبك الظاهرى ، ولكن يبدو أنه كان إماماً للأمير بحكم الصحبة التى كانت بينهما .

وقد كان بحكم وظيفته يرافق الحملات العسكرية عند خروجها للقتال ، وقد ذكر المؤلف نفسه ذلك فى كتابه حيث يقول فى معرض إعجابه بالموكب الذى خرج به الأمير يشبك بحملته من القاهرة ورافقه فيها المؤلف : « ولقد سافرت مع الأمراء مراراً ، فلم أر منهم من سافر على هذه الكيفية » .

وكان إلى جانب وظيفته كقاض للعسكر ، يقوم بمهمة السفارة الرسمية السياسية ، فقد أرسله الأمير يشبك الظاهرى فى سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م) إلى السلطان حسن الطويل صاحب العراقيين ، وقد حدثنا المؤلف عن سفارته هذه فى كتابه[٢] .

كذلك أرسله الأمير يشبك سفيراً إلى السلطان العثمانى فى سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) ، وسبب السفارة ، أنه فى تلك السنة نشبت الحرب بين الأمير يشبك وبين حسن الطويل ، فأرسل السلطان العثمانى إلى الأمير يشبك رسولا

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن أبى بكر بن صالح المرعشى . توفى سنة ٨٧٢ هـ . (ترجمته فى الضوء اللامع : ٢٥٤/١) .

(٢) سوف نتحدث عن هذه السفارة والغرض منها فيما يلى ، عند تعريفنا بموضوع الكتاب .

ابن إياس : بدائع الزهور : ١٤٤/٢ (المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١١ هـ) .

يعرض عليه أن يكون عوناً له على السلطان حسن الطويل ، فأرسل الأمير يشبك ، المؤلف إلى السلطان العثمانى ومعه هدية إليه وكتابا يقول له فيه ، أن يتصل بالسلطان قايتباى مباشرة ، ويعرض عليه اقتراحه .

كذلك أرسل السلطان قايتباى المؤلف رسولا منه إلى حسن الطويل فى سنة ٨٨٠ هـ (١٤٧٥ م) ولم يذكر ابن إياس ـ الذى ننقل منه هذا الخبر ـ سبب هذه السفارة ولا القصد منها ، وإنما ذكر فقط عودة المؤلف من عند حسن الطويل فى شهر جمادى الأولى من السنة ، ويبدو أن سبب السفارة هو القتال الذى نشب بين الأمير يشبك وبين حسن الطويل فى الشهر السابق ـ أى فى شهر ربيع الاخر ـ . فقد ذكر ابن إياس أنه حدث خلاف بين حسن الطويل وبين ابنه « اعزلو » فلجأ الابن إلى نائب حلب يستنصره على أبيه فاستجاب له النائب وجهز معه جماعة من عسكر حلب ، ولما دار القتال بينهم وبين عسكر حسن الطويل انهزم العسكر الحلبى هزيمة شنيعة وسقط بعض كبار القواد قتلى فى المعركة ، ولعله لما بلغ السلطان قايتباى خبر الهزيمة أرسل المؤلف إلى حسن الطويل ليسوى الأمور بينهما ، وعاد المؤلف من سفارته ، وأخبر السلطان بأن الطاعون قد انتشر فى بلاد حسن الطويل ، وأنه مات من عسكره مالا يحصى ، وأن أمره قد تلاشى . فسر السلطان بهذا الخبر[١] .

* * *

وكان للمؤلف مكانة رفيعة عند بعض الأمراء . وبسبب هذه العلاقة وبما كان يتحلى به من أخلاق فاضلة ، حاز مكانة ممتازة بين معاصريه . فقد كان إماما فى الصلاة للأمير أزبك الظاهرى ـ كما سبق أن ذكرنا ـ كذلك كان حائزاً على ثقة الأمير يشبك الظاهرى . ولذلك كان محط أنظار معاصريه ، فكانوا يلجؤون إليه لقضاء حوائجهم . فكان يلبى رغباتهم دون إمهال

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور : ١٦٠/٢ .

حتى حمدوه ، وحتى حمده أيضا السخاوى نفسه ، حيث يقول : « وقصد [المؤلف] بالشفاعات خصوصاً فى أواخر عمره ، حمد الناس أمره فيها ، وكنت ممن حمد أمره معه » . ويجمل السخاوى صفات المؤلف فيقول : « كان عاقلا ، عارفا ، ذكيا ، متوددا ، متواضعاً ، وخالق الناس بالجميل » .

* * *

ويدل حديث المؤلف عن نفسه فى كتابه بمناسبة تدخله فى الصلح بين أمراء الحملة وبين الأمير يشبك ، ثم اشتراكه فى المفاوضات بين شاه سوار ونوابه على القلاع من ناحية ، وبين الأمير يشبك من ناحية أخرى ، على أن المؤلف كان قديراً على الإقناع ، كذلك حديثه مع السلطان حسن الطويل فى سفارته إليه ، يدل على أنه كان دبلوماسياً بارعاً ، فقد استطاع الخروج من المأزق الذى زجه فيه السلطان حسن الطويل ، حيث يذكر المؤلف ، أن السلطان قال له فى أول اجتماع معه : أنه يحب السلطان قايتباى ويعتبر مملكتهما مملكة واحدة ، ولذلك فهو يعجب لماذا لم يطلب السلطان قايتباى معونته ضد شاه سوار ، مع أنه عرض معونته على السلطان قايتباى مراراً ، فتجاهله السلطان ولم يعن بالرد عليه ؛ وهنا لم يشأ المؤلف أن يواجه السلطان بالسبب الحقيقى الذى من أجله أهمل السلطان قايتباى الرد عليه ، وهو طمعه (أى طمع السلطان حسن) ببلاد أرمينية والشام التابعة لمصر ومحاولته الاستيلاء على بعضها[1] ، لم يرغب المؤلف أن يواجه السلطان حسن بهذا ، وإنما أجابه إجابة فيها براعة وحسن تخلص ، تضمنت الإشادة به وبالسلطان قايتباى فى نفس الوقت . قال المؤلف يجيبه : « بسعادة مولانا البادشاه (لقب السلطان حسن) الأمر مايحتاج إلى هذا ، وسوار أقل وأخس من أن يجتمع

(١) ذكر ابن إياس فى « بدائع الزهور » ، محاولات حسن الطويل فى التوسع على حساب مصر . أنظر — على سبيل المثال — أخبار سنوات : ٨٦٠ ، ٨٦٦ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ .

عسكر مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه ـ وعسكر البادشاه . وهذا (يعنى سوارا) من بعض تركمان المملكة الحلبية » ثم عرج على رفض السلطان قايتباى معونته ، فقال : « وما سبق من الأمور فسببه ظاهر لايحتاج إلى التفصيل ، لأن مجلس البادشاه لا يحتمل قط ذلك ، ومولانا البادشاه يعلم حقيقة الحال » . وهكذا خرج المؤلف من المأزق ببراعة .

* * *

ويبدو أن الأمير يشبك كان كثير البر بالمؤلف ، حيث نجد المؤلف يغرق فى مدح الأمير فى كتابه ، حتى أنه ليخيل للقارىء أن الدنيا لم تنجب إنساناً كأميره يشبك لا فى الشجاعة ولا فى كرم الأخلاق ولا فى الفضائل ، وقد أشار السخاوى فى ترجمته للمؤلف إلى الكتاب . فقال : إن فيه « منكر كبير » ولعل السخاوى يعنى إغراق المؤلف فى مدح الأمير .

* * *

وموضوع الكتاب ـ كما سنذكر ذلك بعد ـ عن حملة عسكرية قادها الأمير يشبك للقضاء على شاه سوار الثائر على السلطنة المصرية فى الأبلستين ، رافق المؤلف الحملة بصفته قاضياً للعسكر . وقد جرت التقاليد الحربية الإسلامية أن يرافق كل جيش قاض للعسكر للفصل فى الخصومات والنزاعات التى تحدث بين الجند وبعضهم بعضاً ، أو بين القواد وبعضهم بعضا ، وقد يحتاج الأمر فيكلف قائد الجيش قاض العسكر بمهام أخرى ـ كما حدث مع المؤلف ـ فهو يحدثنا أنه اشترك فى المفاوضات التى دارت بين الأمير يشبك وبين الخصم شاه سوار ونوابه بشأن تسليم قلعة عينتاب ، وبشأن الصلح الذى عرضه شاه سوار على الأمير بعد هزيمته ، كذلك كان يتوسط فى الخلاف الذى كان يحدث بين الأمير يشبك وبين بعض قواده ، وكان يشرف أيضاً على توزيع الهبات المالية التى يهبها الأمير يشبك للجند أو للأمراء تحميساً لهم أو مكافأة لصدقهم فى القتال ؛ واشترك المؤلف أيضاً فى إخماد